

سلام الترجمان

إن رحلة سلام الترجمان إلى سور الصين الشمالي قد تكون حقيقة تاريخية، وإن كان سببها الذي يذكره الجغرافيون العرب - كالفزويني وياقوت - على لسان الرحالة نفسه، أشبه بأسطورة خيالية. والظاهر أن حديثها كان مشهوراً في العصور الوسطى. وقصة هذه الرحلة أن سلاما الترجمان يزعم أن الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢هـ أي ٨٤٢-٨٤٧م) رأى في المنام أن السد الذي بناه الإسكندر ذو القرنين (والذي يقع بين ديار المسلمين وديار ياجوج ومأجوج) مفتوح؛ فأرعبه هذا المنام، وأمر سلاما بأن يرحل ليتفقد السد. فسار الترجمان من مدينة سر من رأى، ومعه خمسون رجلاً ومائتا بغل تحمل الزاد والماء؛ وكان الخليفة قد أعطاه كتاباً إلى حاكم أرمينية ليقضى حوائجهم ويسهل مهمتهم. فعنى هذا الحاكم بالرحالة ورجاله، وزودهم بكتاب توصية إلى حاكم إقليم السرير. وكتب لهم هذا الحاكم إلى أمير إقليم اللان. وكتب هذا الأمير إلى فيلان شاه. وكتب لهم فيلان شاه إلى ملك الخزر في إقليم بحر قزوين؛ فوجه معهم خمسة من الأدلاء وسار الجميع ستة وعشرين يوماً؛ فوصلوا إلى أرض سوداء كريهة الرائحة وكانوا قد حملوا

معهم بإشارة الأدلاء خلا لتخفيف هذه الرائحة. وسار الركب في تلك الأرض عشرة أيام ثم وصلوا إلى إقليم فيه مدن خراب، وساروا فيها سبعة وعشرين يوما. وقال الأدلاء إن شعب يأجوج ومأجوج هو الذى خرب تلك المدن. وانتهوا إلى جبل فيه السور المشود. وعلى مقربة منه حصون تسكنها أمة مسلمة تتكلم العربية والفارسية؛ ولكنها لم تسمع بخليفة المسلمين قط. وتقدم الركب إلى جبل لا نبات عليه يقطعه واد عرضه مائة وخمسون ذراعا. وفي الوادي باب ضخيم جداً من الحديد والنحاس، عليه قفل طوله سبعة أذرع وارتفاعه خمسة، وفوق الباب بناء متين يرتفع إلى رأس الجبل. وكان رئيس تلك الحصون الإسلامية يركب في كل جمعة ومعه عشرة فرسان، مع كل منهم مرزبة من حديد، فيجيئون إلى الباب ويضربون القفل ضربات كثيرة؛ لسمع من يسكنون خلفه، فيعلموا أن للباب حفظة، وليتأكد الرئيس وأعوانه الفرسان من أن أولئك السكان لم يحدثوا في الباب حدثاً.

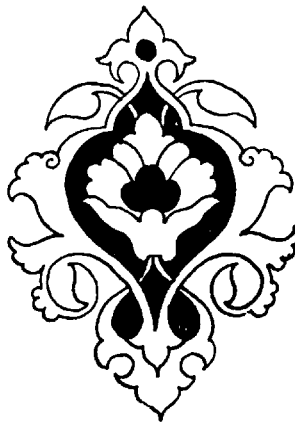
ولما فرغ سلام الترجمان ورفقاؤه من مشاهدة السور رجعوا إلى سر من رأى مارين بخراسان. وكان غيابهم في هذه الرحلة ثمانية عشر شهراً.

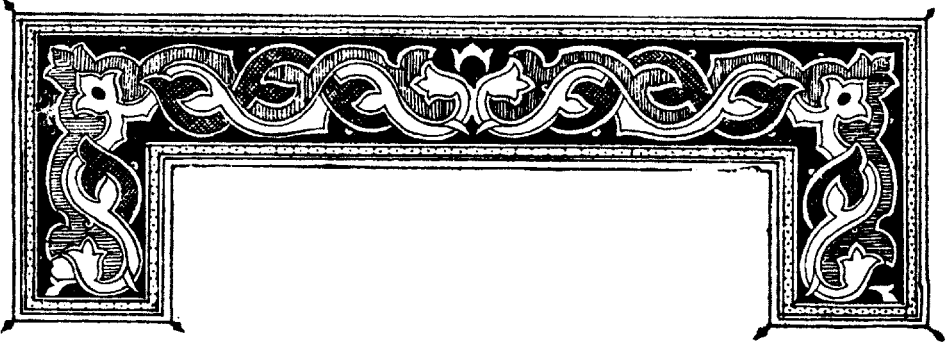
وقد ذكر المستشرق الفرنسي كرادى فو Carra de Vaux أن من المحتمل أن هذه الرحلة كانت إلى الحصون الواقعة في جبال القوقاز وعلى مقربة من دربند (أو باب الأبواب)، في إقليم داغستان غربي بحر قزوين. ومهما يكن من الأمر فإننا لا نعرف عنها إلا بعض المقتطفات في كتب التاريخ والجغرافية، ولا سيما «نزهة المشتاق» للإدريسى و«معجم البلدان» لياقوت.

ومن غريب ما نقله أبو حامد الأندلسي في كتاب «العجائب» عن سلام الترجمان أنه قال:

«وأقمت عند ملك الخرز أياماً، ورأيت أنهم اصطادوا سمكة عظيمة جداً وجذبوها الجبال، فانفتح أذن السمكة وخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر حسنة الصورة، فأخرجوها إلى البر وهي تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح وقد خلق الله تعالى في وسطها غشاء كالثوب الصفيق من سرتها إلى ركبته كأنه إزار مشدود على وسطها، فأمسكوها حتى ماتت».

وقد تساءل الدكتور حسين فوزى في كتابه «حديث السندباد القديم». (ص ١٣٥) عن تفسير ما رأى سلام الترجمان عند ملك الخزر وكتب في ذلك: «أ يكون الملك قد عرض على خليفة المسلمين منظرًا تمثيليًا من نوع «البانتوميم» احتفاء به واحتفالاً بقدومه، وفهمه هذا الساذج على أنه حقيقة؟ أو أن ملك الخزر كان ماجنًا مهزارًا لا يرى عيبًا أن يسخر من ضيفه فيدخل عليه منظر الغانية التي تخرج من أذن سمكة عظيمة جدا، فيتلع (أى فيصدق) سلام المنظر والغانية والسمكة الكبيرة؟» وعندنا أن من المحتمل أيضاً أن يكون سلام الترجمان سمع من بعض العامة في بلاد الخزر حديث تلك السمكة فعلمت بذهنه ونسبها إلى مشاهداته الخاصة.





ابن وهب القرشي

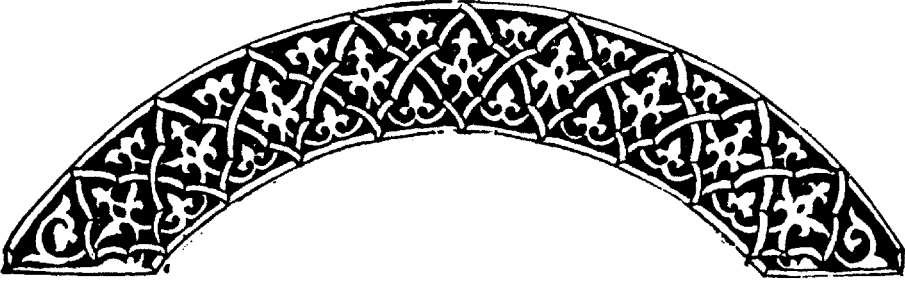
كان ابن وهب من ذوى الثروة والجاه في العراق ومن ولد هبار بن الأسود. وتذكر بعض المصادر التاريخية أنه قام برحلة إلى الصين نحو سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م)، فترك مدينة البصرة عند ما خربها الزنج وخرج من ميناء سيراف على بعض مراكب هندية. وساح طويلاً في ممالك الهند، إلى أن انتهى إلى مدينة خانفو (كتتون) بمملكة الصين. ثم تقدم إلى مدينة خمدان عاصمة تلك المملكة، وتقع هذه المدينة على مقدار شهرين من خانفو. والتمس ابن وهب مواجهة الإمبراطور؛ ولكنه لم يفلح إلا بعد انتظار طويل، وبعد أن أرسل الإمبراطور إلى حاكم خانفو يأمره بالبحث عن حقيقة ابن وهب والاستفسار من التجار العرب عما يدعيه من قرابته لنبي المسلمين. فلما كتب الحاكم بصحة نسبه أكرم الإمبراطور مثواه وأذن له في الوصول إليه وناقشه في الدين والسياسة؛ ثم عرض عليه صور بعض الأنبياء، مثل نوح في السفينة، وموسى وبنى إسرائيل، وعيسى على حماره والحواريون معه، ثم

محمد على جمل وأصحابه محدقون به^(١). وأمر له بعد ذلك بالهدايا النفسية. وأوصى به حاكم خانفو.

ولا نعرف أن ابن وهب دون ما شاهده في رحلته؛ ولكن لا شك في أنه تحدث عنها. وقد أفاد من هذا الحديث مؤلف اسمه أبو زيد حسن، سوف يأتي الكلام عليه. كما أشار المسعودي إلى هذه الرحلة في كتابه «مروج الذهب»، في الفصل الذي عقده للحديث عن ملوك الصين. وقد رجح المستشرق رينو Reinaud أن أبا زيد حسن لقي المسعودي وتبادلا ما كانا يعرفانه عن الهند والصين والبحار الشرقية.



(١) انظر مقالنا «السيرة في الفن الإسلامي» في عدد مايو سنة ١٩٤٠ من مجلة المقتطف، وراجع كتابنا «الصين وفنون الإسلام» ص ١٢ و ٣٩.



سليمان السيرافى

تشير المصادر التاريخية في اللغتين العربية والصينية إلى وجود جموع من المسلمين في الصين في عهد أسرة تنج التى حكمت الصين بين عامى ٦١٨ و٩٠٦م. وكان معظمهم من التجار الذين نزلوا الثغور.

وكان التجار المسلمون المنصرفون إلى الشرق الأقصى يحرون من البصرة ومن سيراف على الخليج الفارسي أو «الخليج الصيني» كما كانوا يسمونه أحياناً في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). وكانت السفن الصينية الكبيرة تصل إلى ثغر سيراف، وتشحن بالبضائع الواردة من البصرة؛ ثم تتجه إلى ساحل عمان وتعبّر المحيط الهندي مارة بسرنديب وجزائر البحار الجنوبية، حتى تصل إلى مدينة خانفو، حيث كانت تعيش جالية إسلامية وافرة العدد عظيمة الشأن. وفي كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه عبارة تفيد أن بعض تجار المسلمين وصلوا إلى شبه جزيرة كوريا.

والمعروف أن قدوم التجار الصينيين أنفسهم إلى الخليج الفارسي أخذ يهبط تدريجياً منذ بداية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)؛ على حين زاد سفر العرب إلى البحار الجنوبية. ثم حدث أن خرب ثغر خانفو نحو سنة

٢٦٤هـ (٨٧٨م) بسبب بعض الاضطرابات في بلاد الصين؛ فقتل كثير من المسلمين، ولم تعد المواصلات البحرية تامة الانتظام بين الصين والشرق الأدنى في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وأصبحت السفن من الجانبين لا تبحر إلا إلى مدينة في منتصف الطريق بين البلدين تسمى «كلاه»، اشتهرت بمناجم القصدير. وأكبر الظن أنها كانت من ثغور الشاطئ الغربي في ملقا.

وقد أشار أبو زيد حسن والمسعودي إلى هذه الحالة في حديثهما عن رجل من أهل مدينة سمرقند «خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى إلى العراق، فحمل من جهازه وانحدر إلى البصرة، وركب البحر حتى وصل إلى بلاد عمان، وركب إلى بلاد «كلاه» وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك، وإليها تنتهي مراكب الإسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت، فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم. وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك؛ وذلك أن مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة... ولما عدم العدل وفسدت النيات... التقى الفريقان جميعاً في هذا النصف. ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلاه في مراكب الصين إلى مدينة خانفو».



ومن المسلمين الذين زاروا الهند والصين عدة مرات رحالة عربي اسمه سليمان، لا نكاد نعرف شيئاً عن ترجمة حياته؛ ولكن وصف سياحته في الهند والصين انتهى إلينا. فقد كتبه سنة ٢٣٧هـ (٨٥١م) - ولهذا الوصف ذيل وضعه في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مؤلف من سيراف اسمه أبو زيد حسن، واعتمد فيه على ما سمعه من قصص الرحالة والتجار في بحار الصين، ولا سيما ابن وهب الذي مر ذكره. وقد طبعت هذه الرحلة

سنة ١٨١١ على يد المستشرق لانجلس Langlès ثم نشرها المستشرق رينو Re-inaud مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٤٥ . كما أحاط بها المستشرق فران Ferrand في مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى والتي ترجمها إلى الفرنسية وعلق عليها ونشرها في مؤلف من مجلدين .

وتحدث الدكتور حسين فوزى عن هذه الرحلة في كتابه «حديث السندباد القديم» (ص ٢١-٣٢) وقال إنها «تعد من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية في المحيط الهندي وبحر الصين في القرن التاسع . وربما كانت الأثر العربي الوحيد الذى يتحدث عن سواحل البحر الشرقى الكبير والطريق الملاحى إليها على أساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وغيرها مما عودنا الجغرافيون والمؤرخون العرب ؛ وإذا رأينا فيما بعد ابن خرداذبة وابن الفقيه والاصطخرى وابن حوقل والمسعودى يتكلمون على أساس من المعرفة الشخصية لبعض المواضع التى يذكرونها، فإنهم أيضا ينقلون الكثير عن ذلك الأثر العربي الأول بلفظه ومعناه في بعض الأحيان، وبما يكاد يكون لفظه ومعناه في البعض الآخر» .

وتمتاز رحلة سليمان والذيل الذى وضعه أبو زيد بما فيهما من وصف صادق للطرق التجارية ، ولبعض العادات والنظم الاجتماعية والاقتصادية، ولأهم المنتجات في الهند وسرنديب وجاوه والصين، مع قلة الخرافات والأساطير التى تكثر في أحاديث البحارة . وتمتازان أيضا بالأخبار الوافية عن علاقة المسلمين بالصين في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (التاسع والعاشر بعد الميلاد) . من ذلك أن مدينة خانفو، أكبر أسواق الصين حينئذ، كان فيها رجل مسلم «يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية . . . وإذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان

المسلمين» والواقع أن المصادر الصينية تشهد بوجود هذا النوع من الامتيازات، وبأنه امتد إلى الجاليات الإسلامية الأخرى في سائر مدن الصين؛ فكان لكل منها قاضيها وشيوخها ومساجدها وأسواقها وإن كانت الحكومة الصينية احتفظت لنفسها بحق النظر في الجرائم التي قد يترتب عليها النفي أو الإعدام. والحق أن الاختصاصيين في الدراسات الصينية من المستشرقين ثبت عندهم صدق كثير مما جاء في حديث سليمان عن أحوال الصين الاجتماعية.

ومن الطريف أن سليمان السيرافي أول مؤلف غير صيني يشير إلى الشاي. وذلك حين يذكر أن ملك الصين يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج من محاجر الملح ومن نوع من العشب، يشربه الصينيون في الماء الساخن ويبيع منه الشيء الكثير في جميع مدنهم ويسمونه «ساخ».

وقال سليمان في وصف بعض جزائر المحيط الهندي أن لأهلها ذهباً كثيراً «وأكلهم النار جيل وبه يتأدمون ويدّهنون، وإذا أراد واحد منهم أن يتزوج، لم يزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم، فإذا قتل اثنين زوج اثنين، وكذلك إن قتل خمسين زوج خمسين امرأة بخمسين قحفاً وسبب ذلك أن أعداءهم كثير، فمن أقدم على القتل أكثر كانت رغبتهم فيه أوفر».

ومما ذكره أبو زيد حسن، في الذيل الذي وضعه لرحلة سليمان، أن السفن القادمة من سيراف متجهة إلى البحر الأحمر كانت إذا وصلت جدة أقامت بها، ونقل ما فيها من السلع إلى مراكب خاصة تحمله إلى مصر، وتسمى مراكب القلزم، وذلك لأن المراكب الأخرى كانت لا تستطيع الملاحة في شمالي البحر الأحمر.

وأتى أبو زيد بكثير من أخبار الهند وسائر الأقاليم المطلة على المحيطين الهندي والهادي وتحدث عن العنبر واللؤلؤ والمسك ومصادرها. وأشار إلى قلة الاتصال بالصين بعد رحلات سليمان وذلك بسبب قيام ثورات فيها.



ابن فضلان

هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد. كان مولى لأحد الخلفاء العباسيين وللقائد محمد بن سليمان، الذى أفلح في هزم الدولة الطولونية وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة سنة ٢٩٢هـ (٩٠٥م). ولسنا نعرف من سيرة ابن فضلان شيئاً كثيراً. والذى لا نشك فيه أنه قام سنة ٣٠٩هـ (٩٢١م) برحلة إلى بلاد البلغار. وهم الشعب الذى أسس في بداءة العصور الوسطى دولتين: أقدمهما في حوض الفولجا الأوسط (أو نهر اتل كما تسميه المصادر العربية)، والأخرى في حوض الطونة. والأولى هي التى زارها ابن فضلان وانتشر فيها الإسلام. وتطلق كلمة بلغار على الشعب وعلى البلاد، وعلى عاصمتها، التى كانت تقع شرقي نهر الفولجا، والتى لا يزال بعض أطلالها قائماً على مقربة من مدينة قازان الحالية وعلى نحو ستة كيلو مترات من شاطئ الفولجا الأيسر، وحيث الدرجة خمس وخمسون من العرض الشمالي وست وستون من الطول الشرقي. ولسنا نعرف على وجه التحقيق متى اعتنق البلغار الإسلام. فابن رسته الذى ألف كتابه «الأعلاق النفسية» حول سنة ٢٩١هـ (٩٠٣م) ذكر فيه أن «أكثرهم يتحولون دين الإسلام، وفي محالهم

مساجد ومكاتب ولهم مؤذنون وأئمة. . . وملابسهم شبيهة بملبس المسلمين ولهم مقابر مثل مقابر المسلمين». أما رحلة ابن فضلان فيبدو منها أنهم لم يدخلوا في الإسلام إلا قبيل زيارة هذا الرحالة.

والحق أن لهذه الرحلة شأنًا خاصًا؛ لأن ابن فضلان كان في بعثة أرسلها الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى ملك البلغار، بعد أن أسلم وكتب إلى الخليفة يسأله «أن يبعث إليه من يفقهه في الدين، ويعرفه شرائع الإسلام ويبنى له مسجدًا، وينصب له منبرًا ليقم عليه الدعوة في جميع بلده وأقطار ملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له». وقد أجابه الخليفة إلى طلبه. وأرسل إليه هذه السفارة، التي كان ابن فضلان الخبير الديني فيها، والتي كان على رأسها مندوب من الخليفة لبحث الأمور السياسية والحربية. وغادر المندوبون بغداد في ١١ من صفر سنة ٣٠٩هـ (٢١ من يونيو سنة ٩٢١)، متجهين إلى بخاري فخوارزم فبلاد البلغار، حيث وصلوا في ١٢ من محرم سنة ٣١٠هـ (١٢ من مايو سنة ٩٢٢).

ورسالة ابن فضلان في وصف هذه الرحلة نقل عنها المؤلفون المسلمون منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كالاصطخري والمسعودي. ثم نقل ياقوت الحموي أجزاء كبيرة منها فيما كتبه عن مادة «أتل» و«باشغرد» و«بلغار» و«خزر» و«خوارزم». وقد نشرت هذه الرسالة لأول مرة بعناية المستشرق فرهن Fraehn في سنت بطرسبورج سنة ١٨٢٣ ومعها مقتطفات أخرى مما كتبه المسلمون عن الروس^(١). وحديثًا أفاد منها المستشرق الروسي برتولد في المقال

Ch.M. Fraehn: Ibn Fozlan's und and anderer Araber Araber Berichte über die Rus- (١)
sen alterer Zeit (St. Peterabourg 1823)

الذى كتبه عن «البلغار» في دائرة المعارف الإسلامية، ثم الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام في مقالين حديثين عن البلغار المسلمين . وقد عثر العالم التركى أحمد زكى الوليدى منذ عشرة أعوام على مخطوط من رحلة ابن فضلان أو فى مادته من المقتبسات المعروفة وله مقدمة وصف فيها رحلته عبر فارس وبخارى وخوارزم في طريقة إلى بلاد البلغار كما أنه يحتوى على كثير من الزيادات والتفصيلات .

والحق أن ابن فضلان ترك لنا في وصف رحلته صورة واضحة للبلغار وحضارتهم وعاداتهم وتجارتهم . ويشهد ما كتبه في هذا الصدد بأنهم كانوا لا يزالون دون ما وصل إليه المسلمون في مدينتهم ، وإن بدت بعض عاداتهم طريفة ، كأن يأكل كل واحد من مائدته لا يشاركه فيها أحد ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً ، ولبسهم القلانيس يرفعونها عن الرأس ويجعلونها تحت الإبط للتحية وإظهار الاحترام .

ويلوح أن علاقة ملك البلغار بشعبه كانت علاقة أبوية وديمقراطية ؛ فقد دون ابن فضلان أن «كل من زرع شيئاً أخذه لنفسه ، ليس للملك فيه حق ؛ غير أنهم يؤدون إليه من كل بيت جلد ثور . وإذا أمر سرية بالغارة على بعض البلدان كان له معهم حصة . . . وكلهم يلبسون القلانيس فإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام ولا أحد معه . فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه وجعلها تحت أبطه ، فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم فوق رؤوسهم ؛ وكذلك كل من يدخل على الملك من صغير وكبير حتى أولاده وإخوته ، ساعة يقع نظرهم عليه ، يأخذون فلانسهم فيجعلونها تحت آباطهم ثم يومئون إليه برؤوسهم ويجلسون ثم يقومون حتى يأمرهم بالجلوس ؛ وكل

من جلس بين يديه يجلس باركا ولا يلبس قلنسوته ولا يظهرها حتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك .

والظاهر أن السِّمَن كان محبوباً عند البلغار؛ وقد كان ملكهم بديناً . ورأى ابن فضلان عندهم تفاحاً «أخضر شديدة الحموضة جداً تأكله الجوارى فيسمن» ومما أتعب ابن فضلان في مهمته الدينية أن الرجال والنساء كانوا ينزلون النهر فيغتسلون جميعاً عراة لا يستتر بعضهم من بعض . وقد اجتهد في منع ذلك فلم يوفق؛ وكان مركز المرأة بينهم عالياً، وكانت الملوك تجلس إلى جانب الملك في المناسبات الرسمية .

وطبيعي أن هذا الرحالة عرض في رسالته لطول الليل شتاءً وطول النهار صيفاً وتعذر تحديد ساعات الصلاة فكتب في هذا الصدد: «ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد قبتي لتحدث؛ فتحدثنا بمقدار نصف ساعة ونحن ننتظر أذان العشاء؛ فإذا بالأذان، فخرجنا من القبة، وقد طلع الفجر . فقلت للمؤذن أي شيء أذنت؟ قال الفجر . قلت فعشاء الأخيرة . قال نصليها مع المغرب . قلت فالليل؟ قال كما ترى، وقد كان أقصر من هذا وقد آخذ الآن في الطول . . . إلخ» ونقل ابن فضلان عن ملك البلغار «أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوماً يقال لهم ويسو؛ الليل عندهم أقل من ساعة» .

والغريب أن ابن فضلان لم يكتب في رسالته شيئاً عن نتائج هذه الرحلة من الوجهتين السياسية والحربية؛ فلسنا ندري هل ساعد المسلمون البلغار في تشييد الحصون المطلوبة أم لا . وأكبر الظن أن ملك البلغار كان يريد بناء تلك الحصون ليحتمي فيها من ملك الخزر بوجه خاص . وكان ملوك الخزر من أصل يشبه البلغار وكانت مملكتهم عند مصب نهر الفولجا ولكنهم كانوا من أتباع الديانة اليهودية وكانوا يعدون ملوك البلغار تبعاً لهم . وعلى كل حال فإن

رحلة ابن فضلان من أقدم ما وصل إلينا عن بلاد روسيا. بل إننا لا نعرف عن رسالة سبقوه في هذه الجولة ما خلا أوتير Ohther النرويجي الذي زار الإقليم الواقع شمالي روسيا حول البحر الأبيض الروسي؛ وذلك قبل رحلة ابن فضلان إلى بلاد البلغار بنحو ستين سنة.

وقد وصف ابن فضلان بعض قدماء الروس الذين شاهدتهم في مكان على نهر الفلجا حين قدموا للتجارة مع البلغار. وكتب المستشرق الروسي فلاديمير مينورسكي V. Minorsky في هذا الصدد أن ابن فضلان كان دقيق الملاحظة فوصف حفلة دفن زعيم روسي وصفاً مفصلاً دقيقاً حتى لقد استطاع أحد رسامي الروسي منذ خمسين عاماً أن يرسم، اعتماداً على هذا الوصف صورة لهذا المشهد الرهيب تزين الآن أحد جدران المتحف التاريخي في موسكو.

وقد زار بلاد البلغار بعد ابن فضلان رحالة وعلماء مسلمون؛ ولكن معظمهم لم يدوّن عنها شيئاً كثيراً. ومنهم عبد الله أبو حامد الأندلسي الغرناطي صاحب كتاب «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب» وقد زار بلاد البلغار سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥م) وصحب قاضيها يعقوب بن النعمان؛ وذكر أن هذا القاضي ألف كتاباً في تاريخ البلغار؛ ولكننا لا نعرف عن هذا الكتاب شيئاً. على أبا حامد الأندلسي نفسه لم يكتب عن رحلته إلا بعض قصص ضئيلة الشأن نشرها المستشرق دورن^(١) B. Dorn.



(١) راجع Melanges Asiatiques, t. VI (Saint-Petersbourg 1869)



أبو دلف

هو أبو دلف الخزرجي الينبوعي مسعر بن مهلهل . كان شاعراً وأديباً ورحالة؛ اتصل بالأمير الساماني بن أحمد . وأوفده هذا الأمير إلى الصين حول سنة ٣٣١هـ (٩٤٢م) مع بعثة كان أحد الأمراء الصينيين قد أرسلها إلى البلاط الساماني ليخطب ابنة أمير بخارى . وقد زار أبو دلف بلاد الهند، وآخر نقطة كانت تصل إليها السفن الإسلامية .

ولسنا نعرف عنه شيئاً كثيراً ما عدا اتصاله بالصاحب إسماعيل بن عباد وزير بني بويه . وهو الذي قدم إليه أبو دلف قصيدة طويلة في حيل بني ساسان وأساليب حياتهم . والمعروف أن اسم «بني ساسان» أطلق على قوم من العيارين المستهترين والشطار المحتالين، كانوا يطوفون الأقاليم، ويتفننون في اختراع الحيل للحصول على المال (راجع مادة ساسان في دائرة المعارف الإسلامية وما ذكر فيها من مراجع).

وفي بعض أبيات هذه القصيدة الطويلة إشارة إلى الرحلات والأسفار الطويلة . ومن ذلك الأبيات الآتية منقولة من كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي :

ومن كان من الأحرار	ر يسلو سلوة الحر
ولا سيما في الغربية	أودى أكثر العمر
وشاهدت أعاجينا	وألواناً من الدهر
فطابت بالنوى نفسي	على الإمساك والفطر
على أنى من القوم الـ	بـهاليل بنى الغر
فنحن الناس كل النـا	س في البر وفي البحر
أخذنا جزية الخلق	من الصين إلى مصر
إلى طنجة، بل في كـ	ل أرض خيلنا تسرى
إذا ضاق بنا قطر	نزل عنه إلى قطر
لنا الدنيا بما فيها	من الإسلام والكفر
فنصطاف على الثلج	ونشتو بلد التمر

وقد حفظ لنا القزويني وياقوت وابن النديم مقتطفات يظن أنها من وصف أبي دلف لرحلته في الصين والهند^(١). وهو وصف يشهد - على إيجازه - بأن هذا الأديب الرحالة كان دقيق الملاحظة. وحسبنا مثلاً أنه فطن إلى أن الخزف الصيني كان يقلد في بعض البلاد الأخرى، ولا سيما في إيران وملبار، ولكن الأواني الصينية كانت تفضل في الأسواق على كل ما يصنع تقليداً لها. وقد انتشر هذا الوصف سنة ١٨٤٥ ومعه ترجمة لاتينية بعناية المستشرق فون شلوزر Kurd von Schloezer ثم ترجمه المستشرق فراند

(١) راجع مادة مسعر بن مهلهل في دائرة المعارف الإسلامية.

Ferrand في مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية التي نشرها عن الشرق الأقصى وخصه ماركارت M.J. Marquart بدراسة وافية في مجموعة المقالات التي كتبت ذكرى وتكريماً للمستشرق ساخاو (Festschrift Sachau). وفضلاً عن ذلك فإن المستشرق وستفلد F. Wustenfled كان قد كتب في منتصف القرن الماضي مقالاً في مجلة علم تقويم البلدان المقارن درس فيه ما كتبه أبو دلف عن القبائل التركية^(١).



(١) راجع F. Wustenfled: Des Abu Dolef Misar Bericht über die türkischen Horden (Zeitschr. Für vörl. Erdkunde, I, Magdberg 1842).